



رسائل جغرافية

الجغرافي الأندلسي

أبو العباس أحمد بن عمر العذري

أ. د. عبدالله يوسف الغنيم

ربيع الأول ١٤١٠هـ
أكتوبر ١٩٨٩م

١٣٠

دورية علمية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية
يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية

الاشتراكات

في الكويت
للمؤسسات ١٢ دينارا كويتيا (سنويا)
للأفراد ٦ دينارا كويتيا (سنويا)

خارج الكويت
للمؤسسات ١٥ دينارا كويتيا (سنويا)
للأفراد ٧.٥ دينارا كويتيا (سنويا)

الجمعية الجغرافية الكويتية
ص.ب: ١٧٠٥١ الكويت الخالدية الرمز البريدي 72451

رسائل جغرافية

١٣٠

الجغرافي الأندلسي

أبو العباس أحمد بن عمر العذري

أ. د. عبد الله يوسف الغنيم

ربيع الأول ١٤١٠هـ
أكتوبر ١٩٨٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجغرافي الأندلسي

أبو العباس أحمد بن عمر العذري

تمهيد : سيرة العذري وعصره

لم يكن تطور الفكر الجغرافي العربي في الاندلس خلال القرن الخامس الهجري بمعزل عن التيارات الجغرافية التي سادت الشطر الشرقي من العالم الإسلامي ، فقد كان للرحالة والحجاج أثرهم في ربط الأندلس بما يجري في الحواضر الثقافية في المشرق ، ومن ذلك أن ابن حوقل النصيبي ـ الذي رحل عن بغداد سنة ٣٣١ هـ ـ قد حمل معه الى الأندلس كتابي ابن خرداذبة والجيهاني ، وهما من أوائل كتب البلدان في الجغرافية العربية .[1]

وكان أبو العباس العذري من العلماء الذين أسهموا في توثيق الصلة بين شطري العالم الاسلامي ، وفي تكوين مدرسة المرية الجغرافية التي كان من أقطابها أبو بكر ، أحمد بن سعيد بن ابي الفياض (٣٧٩ ـ ٤٥٩ هـ) ، ذكر عبد الواحد المراكشي ان له كتابا يدخل في باب المسالك والممالك[2] . ومن أقطابها أيضا أبو عبيد البكري (٤٠٧ ـ ٤٩٦ هـ) وله كتابان في الجغرافيا هما « الممالك والمسالك » و « معجم ما استعجم » .

ولد العذري في بلدة دلاية القريبة من مدينة ألمرية ، وتقع على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة الأندلسية ، وبعد اشتداد عوده رحل مع أبويه الى مكة سنة

٤٠٧ هـ فوصلها في رمضان من السنة التالية ، ومكث في مكة حتى سنة ٤١٦ هـ سمع خلالها سماعا كثيرا على ابي العباس الرازي وابي الحسين بن جهضم وابي بكر محمد بن نوح الاصبهاني وجماعة من أهل العراق وخراسان والشام والواردين مكة . . . ، وصحب الشيخ أباذر الهروي وسمع منه صحيح البخاري[٣] .

وبعد أن عاد الى الاندلس سمع على عدد من علمائها وفضلائها وسمعوا منه ، ومن هؤلاء أبو عمر يوسف بن عبد البر الحافظ ، وأبو محمد بن حزم وهما من سكان قرطبة . وكان الثلاثة من أقطاب علم الحديث والاخبار في الأندلس ، يحج اليهم طلاب العلم من أقاصي الاندلس ، وتخرج على أيديهم نفر من جلة العلماء ، منهم سفيان بن العاص (٤٤٠ - ٥٢٠ هـ) من بلنسية ، وكان من كبار الادباء ضابطا لكتبه صدوقا في روايته ، سمع منه الناس كثيرا . ومنهم سليمان بن ابي القاسم نجاح (٤١٣ - ٤٩٦ هـ) سكن دانية ، ونزل بلنسية ، وكان عالما بالقراءات ورواياتها وطرقها ، حسن الضبط لها ، وله تواليف كثيرة في معاني القرآن العظيم وغيره ، وعلماء آخرون من شاطبة وطليطلة ولورقة وغيرها من حواضر الأندلس[٤] .

وبجانب اهتمام العلماء الثلاثة الكبير بعلوم الدين كان لهم بعض الاهتمام بالعلوم المتصلة بالجغرافيا ، فقد وضع ابن حزم كتابا في أنساب القبائل العربية وأصولها سماه « جمهرة أنساب العرب » ، كما وضع ابن عبد البركتاب « القصد والأمم في التعريف بأصول العرب والعجم »[٥] . أما العذري فكان كتابه أكثر التصاقا بالجغرافية الأقليمية ، استند فيه على تراث نما في شبه الجزيرة الأندلسية على يد أحمد بن محمد الرازي (٢٧٤ - ٣٤٤ هـ) الذي اعتبره الدكتور حسين مؤنس أبا الجغرافية والتاريخ في الأندلس في آن واحد[٦] ، ثم تابع المسيرة محمد بن يوسف الوراق (٢٩٢ - ٣٦٣ هـ) حتى اكتملت قواعده وأسسه في القرن الخامس الهجري على يد العذري وتلميذه البكري .

ومما يلفت النظر في اتجاه العذري وصحبه ، أن الجغرافيا لم تكن تلقى العناية الكافية من رجال الدين الذين اعتبروها من باب « علم لا ينفع وجهل لا يضر » ، أشار الى ذلك الحميري في مقدمة كتابه « الروض المعطار في خبر الأقطار » ، قال : « . . ومع هذا فقد لمت نفسي على التشاغل بهذا الوضع الصاد عن الاشتغال بما لا يغني عن أمر الآخرة ، والمهم من العلم المزلف عند الله تعالى ، وقلت : هذا من شأن البطالين وشغل من لا يهمه وقته » . ثم أخذ يبرر اشتغاله بهذا الضرب من التأليف وأن ذلك فيه ترويح للنفوس ، وأن طائفة من العلماء وأهل التحصيل قد اعتنت بجمعه وتقييده . قال : « فلا حرج في الاقتداء بهم ، بل أقول : أعوذ بالله من علم لا ينفع ، وأستغفره » ، حتى يقول : « فيارب عفوا عن اقتراف مالا رضى له فيه فأنت على كل شيء قدير »[٧]

ولعل دافع العذري للاشتغال بهذا العلم هو اعتقاده بامكانية الاستفادة منه في العلوم الأخرى ، وبخاصة علم الحديث . وعند تلميذه البكري نلمس بعض الأدلة على ذلك ، فقد ذكر في مقدمة معجمه الجغرافي انه كتاب ذكر فيه « جملة ما ورد في الحديث والاخبار والتواريخ والاشعار من المنازل والديار . . الخ » ، وفي متن المعجم نجد اهتمامه الواضح بالمواضع التي لها صلة بغزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه ، وكذلك بالمواضع الواردة في الحديث . وقد أشار البكري في مقدمته الى خطر شيوع التصحيف في المواضع الواردة في الحديث ، وأن ذلك من أسباب تأليفه للمعجم[٨] . ويبدو أن عمل البكري كان بتوصية من شيخه العذري وتحت إشرافه .

مؤلفات العذري :

كان توفر العذري على الاقراء والرواية أكبر من اهتمامه بالتأليف وكتابة الكتب ، وفي نظرة واحدة في كتب التراجم الاندلسية نجد عشرات من العلماء

الذين عاشوا في القرن الخامس الهجري قد قرأوا على العذري ، وتشير بعض تلك التراجم الى إقرائه صحيحي البخاري ومسلم .

أما عن تأليفه ، فقد ذكر له ابن خير الاشبيلي كتابين هما « فهرسة شيوخه » و « افتضاض أبكار أوائل الأخبار »[٩] ، وذكر له ياقوت الحموي كتاب « أعلام النبوة » أو « دلائل النبوة » كما سماه صاحب شذرات الذهب ، وهو نمط من التأليف معروف في ذلك الزمان ، ولتلميذه البكري كتاب في هذا المعنى أيضا . ولم يعثر على أحد من هذه الكتب حتى الآن . وذكر ياقوت أن له كتابا في الجغرافيا سماه « نظام المرجان في المسالك والممالك » وسماه ابن الاثير « المسالك والممالك الغربية » وتكرر عند القزويني باسم « المسالك والممالك الاندلسية »[١٠] . وللاستاذ المرحوم محمد رشاد عبد المطلب بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية الفضل في العثور على قطعة من هذا الكتاب في مكتبة البديري الخاصة بالقدس ، ثم قام بتحقيق الجزء الخاص بالاندلس منها المرحوم الدكتور عبد العزيز الاهواني ونشره تحت اسم « نصوص عن الاندلس من كتاب ترصيع الاخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك الى جميع الممالك » ، وقد قام بنشر هذا الكتاب معهد الدراسات العربية بمدريد سنة ١٩٦٥ .

ولما كان هذا الكتاب هو الذي أعطى للعذري مكانته بين الجغرافيين الاندلسيين فسنحاول في هذه الدراسة أن نستعرض مادته العلمية ، ومنهجه الجغرافي وما أضافه من جديد الى الفكر الجغرافي العربي .

كتاب ترصيع الأخبار :

النصوص المتبقية من كتاب العذري تتمثل ، كما أشرنا ، في قطعة كبيرة تم العثور عليها في مكتبة البديري الخاصة بالقدس ، وقد حصلت على نسخة مصورة منها عن طريق معهد المخطوطات العربية بالقاهرة (رقم ٣٠/ ٦١٢) . بالاضافة

الى مجموعة أخرى من النصوص الواردة في كتب البلدان والجغرافية العربية . وسنحاول من خلال ذلك التوصل الى تصور لحجم كتاب العذري ومنهجه فيه وموقعه بين مؤلفات عصره .

أولا : مخطوطة مكتبة البديري :

يبلغ عدد أوراق القطعة التي عثر عليها من هذا المخطوط ٤٨ ورقة من الحجم الكبير ، يتراوح عدد أسطرها بين ٢٦ و ٢٩ سطرا ، وقد كتبت بخط اندلسي قديم واضح ، الا ان الرطوبة والأرضة أتلفت مواضع كثيرة من المخطوطة فضلا عن تلف بعض الأوراق وتآكل أطرافها ، ووجدت هذه النسخة الفريدة في صورة أوراق مفرقة (دشت) تتضمن احدى صفحاتها العنوان التالي :

« السفر السابع من ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى جميع الممالك ، تأليف أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي » ، وعلى الغلاف نص وقفية جاء فيها : « . . هذا المجلد وما قبله وما بعده من المجلدات من ترصيع الأخبار والمسالك للشيخ الامام العالم العلامة ابي العباس أحمد العذري الشهير بابن الدلائي ، تغمده الله برحمته ، وعدة ذلك خمسة مجلدات » .

ويحتوي الجزء الأكبر من هذه المخطوطة على نصوص جغرافية وتاريخية عن الأندلس قام المرحوم الدكتور عبد العزيز الأهواني بجهد مشكور في تحقيق تلك النصوص ونشرها . ولا نريد أن ندخل في وصف هذا الجزء من كتاب العذري ، لأن الدكتور الأهواني قد وفَّاه حقه من الوصف والتحقيق ، وسنركز فقط على وصف ست من الأوراق أشار اليها الأهواني بايجاز شديد ، ولم يدخلها في نصه المحقق ، لكونها لا تتعلق بالأندلس . وتقع تلك الأوراق في نهاية النسخة حسب ترتيب التصوير ، ومن الواضح أنه لا توجد علاقة موضوعية بينها وبين نص

الأندلس ، وتشتمل الاوراق الست على ثلاث ورقات عن مصر ، واثنتين عن بلاد الشام ، وورقة واحدة عن كرمان ، على النحو التالي :

١ ــ مصر : تحتوي النصوص المتعلقة بمصر على تاريخها القديم ووضعها فترة الفتح الاسلامي مع التركيز على فضائلها ، والمعلومات الجغرافية تأتي عرضا ضمن هذه الموضوعات ، ويبدو أن العذري قد أفرد الكلام عن كور مصر والمسافات بينها بعد هذه المقدمة التاريخية ، مثلما فعله معاصره البكري .

وإذا ما استعرضنا ما يخص الجغرافي في هذه الورقات ، نجد العذري قد ذكر في الورقة رقم ٤٠ عند تعداده لفضائل هذا القطر أن مصر « متوسطة الدنيا ، فهي في الاقليم الثالث والرابع ، سلمت من حر الاقليم الاول والثاني ، ومن برد الأقليم السادس والسابع ، فطاب هواؤها ، وضعف حرها وخف بردها ، فسلم أهلها من مشاتي الجبال ، ومصائف عُمان ، وحر تهامة ، ودماميل الجزيرة ، وجرب اليمن ، وطواعين الشام ، وطحال البحرين ، وحُمّى خيبر ، وأمنوا من غارات الترك والعرب والديلم ، وأمنوا قحط الاقطار . ففي كورها طرائف وعجائب ، فصعيدها أرض حجازية حرها حر الحجاز ، تنبت النخل والاراك ، والقرظ والعشر ، وأسفل أرضها شامي يمطر بمطر الشام ، وتنبت ثمار الشام من الكرم والتين واللوز والجوز وسائر الفاكهة والبقول والرياحين ، ويقع بها الثلج .

وأمر الرشيد فصورت له مدائن الدنيا ، فما استحسن منها غير عمل أسيوط ، فان مساحته ثلاثون ألف فدان في دست واحد لو قطرت قطرة فاضت على جميع جوانبه ، يزرع فيه القمح والكتان والقرظ وسائر أصناف الغلات فلا يكون على وجه الارض بساط أعجب منه ، يسايره من جانبه الغربي جبل أبيض على صورة الطيلسان كأنه قرون ، ويحيط به من جانبه الشرقي النيل كأنه جدول فضة ، لا يسمع فيه الكلام من كثرة أصناف الطير . وأجمع الناس أنه ليس على وجه

الأرض بساط قرظ فيه خيل موقوفة وخيام مضروبة ونتائج ومها وسائمة وقهارمة الا بمصر » .

ثم يورد في الصفحة الثانية من هذه الورقة رسالة عمرو بن العاص الى عمر ابن الخطاب رضي الله عنهما في وصف مصر بقوله : « أرض مصر تربة سوداء ، وشجرة خضراء بين جبل أغبر ، ورمل أعفر ، وخطها مسيرة راكب شهرا . كأنها بين جبلها ورملها بطن أقب ، أو ظهر أجب ، فيها نهر مبارك ميمون البركات ، يسيل بالذهب على الزيادة والنقصان كمجاري الشمس والقمر ، تمده عيون الأرض وينابيعها مأمورة بذلك ، حتى اذا طمت لججه ، واعلولت عبابه ، فكانت القرى بما أحاط بها منه لا يوصل من بعضها الى بعض الا في السفائن والمراكب ، ثم لا يلبث الا قليلا حتى تنقص جريته ، وتستبين متون أرضه ، ثم تنتشر فيه أمة محصورة قد رزقوا على أرضيهم جلدا وقوة ، لغيرهم ما شقوا به من كدهم ، بغير حمد لهم على ذلك ، فيحفروا سهل الأرض وروابيها ، ثم يلقوا فيها من صنوف الحب ما يرجون به التمام من الرب حتى يبدو طوالعه ، ويظهر قنوانه ، يسقيه من تحته الثرى ومن فوقه الندى ، فيتغنى ذبابها ويدر حلابها ، ويتدانى صرامها . فبينا هي مدرة سوداء اذا هي لجة زرقاء ثم غوطة خضراء ثم ديباجة رقشاء ، ثم فضة بيضاء ، فتبارك الله الفعال لما يشاء »[١١] .

وفي الورقتين ٤٢ ، ٤٣ حديث مسهب للعذري عن تاريخ مصر القديمة وملوكها وبرابيها وأهرامها ، والورقتان ليستا متصلتين أي لا تكمل احداهما الأخرى ، وكذلك الحال بالنسبة للورقة الأولى (٤٠) وليس في هاتين الورقتين ما يفيد الجغرافي سوى ما ورد في ظهر الورقة الأخيرة حول حدود مصر وكورها . . يقول العذري عن حدود مصر :

« طولها من الشجرتين بين رفح والعريش الى اسوان . وعرضها من برقة الى أيلة . وذكروا أن مصر جزء من ستين جزءاً من بلاد السودان . وأن بلاد السودان

جزء من ستين جزءاً من الأرض كلها .

ثم يورد نفس القائمة التي أوردها البكري عن الكور المصرية وهي :

« الفيوم ـ الاشمونين ـ الدير ـ السرداب ـ عين شمس ـ تونة ـ شطا ـ الكوبور ـ سحامك ـ هيت ـ سطيطيس ـ كفر طس ـ السما ـ الفرما ـ سابور صير ـ (المحلة) ـ دميرة ـ دقهلة ـ تنيس ـ دمياط ـ منف ـ وسيم ـ الاسكندرية ـ انطابلس ـ دلاص ـ أهناس ـ القيس ـ طحا ـ أسيوط ـ قهقا ـ البهنسا ـ أنصنا ـ أبنود ـ قفط ـ أرمنت ـ أسوان ـ القلزم ـ الطور ـ أيلة ـ مسطل ـ البلندس ـ فرسطا ـ نوسا ـ الملقون ـ الاوضية ـ طوة ـ مندق السفلى ـ مندق العليا ـ فسيس ـ برلس ـ التخوم ـ صغيرة ـ البحيرة ـ سمنود ـ الحوف الشرقي ـ الحوف الغربي ـ أسفل الأرض ـ بطن الريف ـ البشرود ـ النقيزة ـ اطرارية ـ فرسط ـ الجيزة ـ المدقوق ـ الشراك ـ ترنوط ـ اسمير ـ اسيوط ـ وبرزة »(١٢) .

٢ ــ كرمان (ايران) : النص المتعلق بمنطقة كرمان مبتور الأول ، وتتضمنه الورقة رقم ٤١ من المخطوط ، ويتكلم النص عن الفتح الاسلامي لجبال البارز زمن بني أمية . حيث يشير النص الى منعة هذه الجبال الواقعة باقليم كرمان في الجنوب الغربي من إيران ، وأنه يكتفى بأن يقف على رأس كل عقبة منها خمسة رجال يمنعون من جاءهم كثيرا كانوا أو قليلا من الفرسان والرجال ، فلا يتهيأ لأحد الدخول اليها الا من رؤوس الجبال الشواهق ، وفي طريق لا يهتدى اليها . ويقول العذري ان في هذه الجبال جميع أشجار الصرود والجروم(١٣) ، وجبالهم لا تخلو من الثلج صيفا ولا شتاء ، وتحتوي على غلات المناطق الحارة والباردة كالجوز والموز والرطب والأترج .

ثم يتكلم في آخر الورقة عن المسافات من جيرفت الى المناطق الأخرى . وجيرفت من أشهر مدن كرمان ، قال عنها ابن حوقل : « وهي متجر خراسان

وسجستان ، ويجتمع فيها ما يكون في الصرود والجروم من الثلج والرطب والجوز والاترج ، ماؤهم من نهر هرى روذ ، وهي مدينة وناحية خصبة ، وزروعهم سقى[١٤] . وتقع جيرفت غربي جبال البارز . وتعرف خرائبها اليوم باسم شهر دقيانوس »[١٥] .

وتغلب على هذا النص المادة التاريخية ، وفيها نصوص لا توجد في المصادر العربية التي تكلمت عن هذه المنطقة .

٣ ـ بلاد الشام : يشغل هذا الاقليم من المخطوط ورقتين هما ٤٤ و٤٨ ، تتضمن الورقة الاولى خبر حمص ، وهو نص تاريخي لم يرد في معظم كتب التاريخ والفتوح ، والوحيد الذي أورد هذا النص هو محمد بن عبد الله الازدي في كتابه « تاريخ فتوح الشام » . ويلاحظ أن العذري هنا قد حذف الاسناد واكتفى بذكر صاحب الخبر[١٦] .

ثم يتكلم في الورقة الثانية عن الأقسام الجغرافية لبلاد الشام ، فقال : « قسمت الأوائل الشام خمسة أقسام :

فلسطين هي الشام الأولى ، وأول حدها من طريق مصر رفح ، ثم يليها غزة ثم الرملة ، رملة فلسطين ، ومدينتها العظمى ايلياء وبها بيت المقدس . ثم الشام الثانية ومدينتها العظمى الطبرية التي على شاطىء البحر ، والغور واليرموك وبيسان فيما بين فلسطين والاردن . ثم الشام الثالثة الغوطة ، ومدينتها العظمى دمشق ومن سواحلها طرابلس . ثم الشام الرابعة وهي أرض حمص .
ثم الشام الخامسة قنسرين ومدينتها العظمى حلب .
وبين قنسرين وحلب ستة فراسخ وساحلها انطاكية ، مدينة عظيمة على ساحل البحر في داخلها البساتين والمزارع ومن ثغور الشام الخامسة المصيصة وطرسوس »

ثم يتكلم العذري عن المسافات بين المدن المهمة في الشام على النحو التالي :

المسافة بين الرقة وحمص .

المسافة من حمص إلى الرفنية الى بليناس ومن حمص الى عين ايلين

المسافات من حلب الى الثغور الشامية على السكك .

المسافات بين قنسرين والعواصم .

المسافات بين الثغور الشامية .

المسافاث بين الثغور الجزرية .

وهو لا يتبع قياسا واحدا ، فقد استخدم قياس الفرسخ والميل والسكك .

وهذا النص جاء مبتور الأول والآخر بخلاف الورقة السابقة المتعلقة بفتح حمص التي جاء نصها متكاملا غير ناقص . ولحسن الحظ فان أجزاء من هذا النص وجدناها عند البكري في كتابه الممالك والمسالك(١٧) .

ثانيا : النصوص الواردة في كتب الجغرافية العربية :

من خلال هذه النصوص يمكن الوصول الى مزيد من المعرفة حول كتاب العذري ومنهجه وحدود مادته العلمية . ومن مراجعة معظم كتب البلدان التالية له يتضح انه كان قليل الانتشار بدليلين اثنين : أولهما قلة الكتب التي اخذت عنه ، وثانيهما اختفاء مخطوطات الكتاب ، فلم يبق منها سوى تلك القطعة الصغيرة التي عثر عليها في القدس ، بخلاف كتاب معاصره البكري الذي وجد من كتابه نحو اثنتي عشرة قطعة موزعة في مناطق مختلفة من العالم .

وتوجد أكبر مجموعة من نصوص كتاب العذري عند زكريا القزويني في معجمه آثار البلاد وأخبار العباد ، فقد بلغ عدد النصوص المنسوبة الى العذري في هذا الكتاب ٢٨ نصا يمكن تصنيفها في ثلاث أصناف :

(١) نصوص عن الاندلس ، وردت في القطعة المنشورة من الكتاب :

تتضمن هذه النصوص المدن التالية : البيرة (ص ٥٠٢) ، سرقسطة (ص ٥٣٤) ، غرناطة (ص ٥٤٧) ، لبلة (ص ٥٥٥) ، لورقة (ص ٥٥٥ ، ٥٥٦) .

ونقول القزويني ذات فائدة كبيرة في تصحيح النص أو إكماله ، ولو اخذنا مثالا على ذلك ما ذكره القزويني عن سور مدينة لبلة مقارنا بما ورد في النص المنشور من كتاب العذري لوجدنا أن هناك اضافة واضحة في ما جاء عند القزويني على النحو التالي :

أ ـ النص في كتاب ترصيع الأخبار (ص ١٦٠) : « وسور مدينة لبلة عقد بناؤه على تصاوير خلق ، وما أناف من سامق ذلك البناء موضوع على أعناقهم . انفردت به هذه البنية بين جميع المدن » .

ب ـ النص في كتاب آثار البلاد (ص ٥٥٥) : « قال العذري سور المدينة (لبلة) قد عقد بناؤه على تصاوير اربعة : صنم يسمى درديا وعليه صنم آخر ، وصنم يسمى مكيخا وعليه صنم آخر . والمدينة مبنية على هذه الأصنام ، وماعلا من البناء موضوع على أعناقها . ومدينة لبلة انفردت بهذه البنية على سائر المدن .

ولا نستطيع ان نجزم بأن هذا يعني أن لدى القزويني نسخة فيها اضافات لم تصل الى أيدينا .

كما أن القزويني كثيرا ما يختصر النص ويختار ما يميل اليه وهو ذكر عجائب المدن وغرائبها .

(٢) نصوص عن الاندلس ، لم ترد في القطعة المنشورة من الكتاب :

تتضمن هذه النصوص المدن التالية : الأشبونة (ص ٤٩٦) ، شبه جزيرة الاندلس (ص ٥٠٣ ـ ٥٠٥) ، بسطة (ص ٥١٢) ، شاشين ، جزيرة توازى حد الاندلس (ص ٥٣٩) ، شغنسة (ص ٥٤١) ، شلب (ص ٥٤١) شنت مرية (ص ٥٤٢) ، طرطوشة (ص ٥٤٤) ، طركونة (ص ٥٤٥) ، طليطلة (ص ٥٤٦) ، فبرة (ص ٥٤٩) ، فراغة (ص ٥٤٩) ، قرطبة (ص ٥٥٢) ، قسطلونة (ص ٥٥٣) ، وادي الحجارة (ص ٥٦٧) ، والوطة (ص ٥٦٨) .

وقد أكد القزويني في ثلاثة مواضع من كتابه أنه ينقل عن أحمد بن عمر العذري صاحب « الممالك والمسالك الأندلسية » (ص ٤٩٦ ، ٥٠٣ و ٥٠٥) وتفيد النصوص المنقولة عنه في تكملة الصورة الجغرافية للاندلس كما وردت عند العذري ، بل انها تماثل في الأهمية مجموع المعلومات الجغرافية الواردة في الجزء المنشور من كتابه ، بخاصة وقد احتوت تلك النصوص على ذلك المدخل المهم لجغرافية الاندلس والذي استغرق نحو ثلاث صفحات من كتاب القزويني ، وقد ختمه الأخير بقوله « كل ذلك عن العذري » .

(٣) نصوص لا علاقة لها بالاندلس :

تتمثل هذه النصوص في كلامه عن جزيرة صقلية (ص ٢١٦) وجزيرة قبرص (ص ٢٤٠) وأشت ، وهي مدينة بأرض الافرنج (ص ٥٧٦) ، وايرلاندة ، وهي جزيرة في شمالي الاقليم السادس وغربيه (ص ٥٧٧) ، وكرتنة ، مدينة كبيرة بأرض الفرنج (ص ٦٠٧) ، وكرمالة حصن بأرض الفرنج (ص ٦٠٧) وباطن الروم (ص ٦١٠) .

والملاحظ على النصوص السابقة جميعا أن القزويني قد اصطفى المادة الجغرافية ، من بين المعلومات التاريخية الكثيرة التي يقحمها العذري في كتابه ، كما يلاحظ أن معظم النصوص التي أوردها القزويني متعلقة ببلاد الاندلس ، بالاضافة الى بعض المعلومات المتعلقة بمناطق قريبة منها ، كبلاد الافرنج وجزيرة ايرلاندة وجزيرة صقلية وقبرص في حوض البحر المتوسط . ولعل هذا يقودنا الى القول بأن القزويني لم تكن لديه نسخة كاملة من الكتاب ، بل لديه فقط ما يتعلق بالجانب الغربي من العالم الاسلامي ، وهذا سر التسمية التي أطلقها على الكتاب وهي « المسالك والممالك الأندلسية » ، علما بأنه هو نفسه قد أورد عن العذري نصوصا ليست من الأندلس .

وتؤكد النصوص الواردة في مخطوطة القدس ، المتعلقة بمصر وبلاد الشام وفارس أن الكتاب ليس مختصا ببلاد الاندلس بل هو كتاب شامل في الجغرافية الاقليمية للعالم الاسلامي . ونجد برهان ذلك ايضا عند الزهري في كتابه « الجعرافية » الذي نقل عن العذري أربعة نصوص ثلاثة منها لا تتعلق بالاندلس ، فالأول عن طير الرخ ، وقد ورد أثناء الكلام عن النوبة والحبشة . والثاني عن حيوان الكركدن ، في جزر الصين على الجانب الشرقي من المعمور ، والثالث عن مدينة البندقية في إيطاليا . [١٨]

وفي رسالة مخطوطة عن منازل الحجاز ينقل الكاتب نصا عن العذري فيه بيان الطريق من بحر القلزم الى المدينة المنورة ، ويشير الى كتابه باسم « نظام المرجان » ، ويذكر أنه كان موجودا في منطقة بدر سنة ٤١٤ هجرية ، وهي توافق الفترة التي عاش فيها العذري في الحجاز . [١٩]

منهج العذري في الكتاب :

دلتنا النصوص المتبقية من كتاب العذري ، والتي أشرنا اليها في العرض

السابق أنه كتاب شامل في الجغرافيا يماثل كتب الممالك والمسالك العربية . وبمقارنته بذلك النوع من الكتب وجدنا أن أقربها اليه هو كتاب الممالك والمسالك لابي عبيد البكري معاصره وتلميذه ، ومن الجزء المتعلق بممالك مصر وكورها وبلاد الشام نجد أن العذري يورد نفس المعلومات التي أوردها البكري في كتابه ، دون أن يشير أحدهما الى الآخر ، بصورة تستدعي الانتباه والتأمل .

ومع أن البكري قد وضع كتابه « الممالك والمسالك » في سنة ٤٦٠ هـ . أي قبل كتاب شيخه العذري الذي انتهى منه في سنة ٤٧٢ هـ ، إلا ان الأول قد روى عن الثاني مشافهة في مواضع كثيرة من كتابه ، كان يبدؤها بقوله « أخبرني العذري » . ولا نجد فيما وصلنا من كتاب العذري أية اشارة الى البكري أو كتابه . وربما كان للعذري الفضل الأسبق في توجيه تلميذه نحو ترتيب كتابه على نسق معين ، يتفق مع نظرته لعلم البلدان . وقد لمسنا ذلك في أوجه الشبه في المادة العلمية وترتيبها في أجزاء من المؤلفين . وعليه ، فان إلقاء الضوء على كتاب البكري ، الذي وصلنا كاملا يمكن أن يعطي فكرة شمولية عما يمكن أن يكون عليه كتاب العذري .

بدأ البكري كتابه بمقدمة تاريخية طويلة عن مدة عمارة الأرض والقول في الخلق ونشأة البشر ، ثم وضع بابا في الجغرافية الطبيعية تكلم فيه عن شكل الارض وقطرها ومساحة المعمور منها والأقاليم السبعة والبحار والأنهار ، ثم ذكر الممالك كالفرس والروم والهند وغيرها ، ثم ذكر الاقاليم الجغرافية التي تشكل معظم مادة الكتاب .

وعند كلام البكري عن الاقاليم بدأ بنقطة مركزية هي جزيرة العرب ، ثم ذكر الاقاليم الشرقية ، فبدأ بالعراق وبلاد فارس والجبال ثم بلاد الشام وجزر البحر المتوسط والبلاد الواقعة على سواحله الشمالية ، كأن هذه البلاد امتدادا لأقاليم المشرق ، لالتقاء الشام برا ببلاد الروم من جهة الشمال واتصالها بها من

ناحية الغرب . وجدير بالذكر ان ابن حوقل والاصطخري قد ذكرا بحر الروم بعد ذكرهما للشام ، وأخيرا تكلم البكري عن الأقاليم الغربية بدءا بمصر ثم الشمال الافريقي من الشرق الى الغرب على الترتيب ، ثم بلاد الاندلس[٢٠] .

واذا عدنا الى القطعة الباقية من كتاب العذري نجد أن أول صفحة منها تحمل عبارة « السفر السابع من ترصيع الاخبار وتنويع الآثار . . . . الخ » . وفي هذا اشارة الى أن كتاب العذري يتألف من سبعة أسفار كان هذا هو آخرها وهو الجزء الخاص ببلاد الاندلس ـ تماما كترتيب البكري ـ وأن الاوراق الخاصة بمصر وبلاد الشام وفارس دخيلة على السفر السابع .

ولا يعني ما قدمناه أن حجم كتاب العذري يوازي كتاب تلميذه البكري ، اذ يلاحظ ميل العذري الى الاستطراد في الأحداث التاريخية التي يعرض لها . وهذا الاستطراد أكثر بكثير من استطراد البكري في هذا الموضوع واذا ما عدنا الى القسم الخاص بالاندلس نجد ان البكري لم يتكلم عن الأحداث التاريخية التي مرت بها مدن الاندلس على عكس العذري الذي كان لا يعرض لجغرافية مدينة من مدن الاندلس دون أن يتكلم عن تاريخها السياسي ومن تغلب بها من الحكام . ففي حديثه عن مدينة سرقسطة وذواتها ـ مثلا ـ نجد ان المادة الجغرافية لا تزيد عن خمس صفحات ، بينما كلامه عن الثوار في هذا الاقليم كان في أكثر من خمس وعشرين صفحة ، وكذلك الحال في سائر أقاليم الاندلس .

وفيما يلي مجموعة من الملاحظات حول منهج العذري في كتابه ، واسلوب معالجته للمعلومات الجغرافية ، بالاضافة الى موقع الكتاب بين كتب معاصريه :

١ ـ قسم العذري كتابه الى سبعة اسفار كما قد منا ، تناول فيها ـ فيما يبدو ـ نفس المواضيع التي تناولها البكري مع استطرادات تاريخية تفوق مثيلاتها عند البكري ، وأوضح دليل على ذلك المثال الذي ضربناه عن نسبة المادة الجغرافية الى المادة التاريخية عند كلام العذري عن سرقسطة .

ويرى الدكتـور حسين مؤنس أن الفـاصل بـين التاريـخ والجغرافيـا عند الأندلسيين لم يكن واضحا في ذلك الوقت وأنه « ما من مؤرخ عندهم الا يمكن اعتباره جغرافيا ، وما من جغـرافي الا وهو مؤرخ في نفس الـوقت ، وتلك من خصائص التاريخ والجغرافية عند الأندلسيين »[٢١] وقد تحمس الدكتور مؤنس لهذه الفكرة حماسا كبيراً أدى به الى وضع عدد من المؤرخين في عداد الجغرافيين .

وهذه القضية توجب علينا التوقف والتأني قبل اصدار هذا الحكم ، فميدان علم البلدان واضح ومميز منذ القرن الثالث الهجري . ونحن لا نستطيع أن نقيم أية علاقة بين الجغرافيا وأي علم آخر عند الاصطخري وابن حوقل والمقدسي وابن سعيد والادريسي وابي الفداء وغيرهم من الجغرافيين في المشرق والمغرب .

واذا ما وجدنا كتابا يحتوي عـلى معلومات جغـرافية وتـاريخية مثـل كتاب « ترصيع الأخبار » للعذري أو « الممالك والمسالك » لابي عبيد البكري فينبغي ان يكون حكمنا في هذا هو بناء الكتاب ، فالمعلومات التـاريخية في كتـابي العذري والبكري ـ رغم كثرتها ـ تأتي عرضا ، واذا ما انتزعنـا تلك المعلومات يـظل بناء الكتاب متكاملا غير مختل . بينما لو تم ذلك الأمر في كتاب مثل كتاب المقتبس لابن حيان لما بقى منه سوى معلومات جغرافية متفرقة لا رابط بينها[٢٢] .

٢ ــ اهتم العذري بذكر العجائب والغرائب في الأقاليم الموصوفة ، وهذا الجانب من المعرفة قد أكد عليه المؤلف في عنوان كتابه ، ومع أن بعض الغرائب التي ذكرها يصعب تصديقه مثل ذكره للزيتونة القريبة من حصن « ميربيط » والتي زعم أنها تنور وتعقد وتثمر كل ذلك في اليوم الأول من شهر مايو[٢٣] ـ الا ان معظم الغرائب التي يوردها هي في واقع الأمر ظاهرة طبيعية يستطيع دارس الجغرافيا أن يعللها ويستفيد منها . ويمكن التمثيل لذلك بنصين :

الأول عن جزيرة صقلية حيث أشار الى ظاهرتين فيها على سبيل الغرائب ،

احداهما عن البركان العظيم « ليس في الدنيا بركان أشنع منه منظرا ولا أعجب مخبرا ، فاذا هبت الريح سمع له دوي عظيم كالرعد القاصف ، ويقطع من هذا البركان الكبريت الذي لا يوجد مثله » وثانيتهما عن آبار ثلاث بهذه الجزيرة « يخرج منها من أول الربيع الى آخره زيت النفط فينزل في هذه الآبار على درج ، ويتقنع النازل ويسد منخره ، فان تنفس في أسفلها هلك من ساعته ، يغترف ماءها ويجعله في اجانات ، فما كان نفطا علا فيجمع ويجعل في قوارير »[٢٤]

والنص الثاني : يتعلق بعين ماء تقع غربي حصن بلس بنحو ستة أميال يزعمون أن من قصدها وبه ريح أو وجع واغتسل منها شفي[٢٥] .

وقد اجتهد كل من القزويني في « آثار البلاد » والزهري في « الجعرافية » في نقل بعض العجائب والغرائب التي ذكرها العذري ، ومن نقول القزويني عنه يتضح انه كان يهتم بالغرائب في كل الاقاليم التي تحدث عنها في كتابه ، ونجد ذلك واضحا عند كلامه عن صقلية ومدينة والوطة الواقعة بجزيرة ميورقة في البحر المتوسط وغيرها .

٣ ـ يمكن التعرف على منهج العذري في تصنيف المادة الجغرافية من خلال دراسة بلاد الاندلس لوفرة المعلومات التي وصلتنا عن كتابه عن هذا الاقليم . فقد بدأ العذري حديثه عن الأندلس بذكر موقعها من الأقاليم ، فذكر أنها متوسطة بين الأقاليم ، بعضها في الاقليم الرابع وبعضها في الخامس ، في حين ان الرازي اكتفى بقوله انها في الاقليم الرابع .

ثم تكلم العذري عن ثروتها الاقتصادية ، قال :

« وبها معادن الذهب والفضة والرصاص والحديد في كل ناحية ، ومعدن الزئبق والكبريت الأحمر والاصفر والزنجفر الجيد والتوتيا ، والشبوب على اجناسها والكحل المشبه بالاصفهاني . وبها من الاحجار الياقوت والبلور والجزع واللازورد

والمغناطيس والشادنج ، والحجر الذي يقطع الدم ، والحجر اليهودي والمرقيشيثا وحجر الطلق وبها أصناف الرياحين حتى سنبل الطيب والقسط والاشقاقل وبها الانبرباريس والعود » .

ثم نعت الاندلس بأنها « شامية في طيبها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في أفاويهها وذكائها ، أهوازية في عظم جبايتها ، صينية في جواهرها ، عدنية في سواحلها »[٢٦]

ويهتم العذري اهتماما كبيرا بذكر مصادر المياه كالانهار والعيون والسواقي وهي القنوات وما الى ذلك . وهو يذكر ما تتميز به تلك المصادر ، فمن ذلك أن عينا قرب قرية أرطانة منبعها « يخرج من غار الى حوض فيغزر الماء في الحوض مدة ، ويقل أخرى كالمد والجزر ، وذكر أنه وقف على تلك العين ورأى الماء كما قيل له يملأ ويحصر[٢٧] . وفي اقليم بلشر من أقاليم سرقسطة عين تبعث بماء غزير له محبس اذا أحب أهله اطلاقه اطلق . واذا احبوا حبسه حبس فلم يجر ، قد دبره الأول على هذا واجروه في صخر منقوب يوثق فيه ويطلق منه ، وهو على رأس ثلاثين ميلا من مدينة سرقسطة .[٢٨]

وهو أحيانا يتتبع النهر من منبعه الى مصبه ويذكر طوله وما يوجد فيه من أصناف السمك قال عن نهر أبره : «مخرج هذا النهر من عين يقال لها فونت ايبرهي ، ومصبه في البحر الشامي بناحية طرطوشة ، وامتداده مائتا ميل وعشرة أميال ، يوجد فيه صنف من السمك عجيب يقال له الترحتة لا يوجد في غيره البتة ، وهو سمك أبيض ليس له الا شوكة واحدة »[٢٩] .

٤ ــ وتتضح منهجية العذري في تقسيمه للاندلس الى قسمين شرقي وغربي « وذلك بجرى الانهار ، فما جرى منها الى الغرب سماه الغربي ، وما جرى الى الشرق سماه الشرقي ، والقسمة من تدمير ، ونهرها جار الى الشرق »[٣٠] . .

ونلاحظ هنا أن العذري قد جعل عامل القسمة حدا طبيعيا يتمثل بخط تقسيم المياه ، فالمعلوم أن الجهة الشرقية من الاندلس تصرف مياه أنهارها باتجاه الشرق والجنوب الشرقي لتصب في البحر المتوسط ، مثل أنهار شقورة وتوريا وابره ، أما الجهة الغربية فتصرف مياهها باتجاه الغرب والجنوب الغربي لتصب في المحيط الاطلسي ، مثل الوادي الكبير ووادي أنه ونهر تاجه .

ويلاحظ أنه بعد أن ذكر القسم الأول قال : « تم ذكر الاندلس الاول على قسمة قسطنطين . وهو الذي جزأها ستة أجزاء ، أضاف الثلاثة فسماها بالاندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء وهي لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة الى أقصى الغرب ، وأضاف الثلاثة أيضا فسماها بالاندلس الاقصى ، وذلك من اوريولة الى سرقسطة وماوازاها . وسماها غير قسطنطين بالاندلس الغربي والاندلس الشرقي وذلك بجرى الانهار . . الخ »[٣١]

وفي هذا خلط بيِّن ، فلم تكن قسمة قسطنطين على النحو الذي بينه العذري ، كما أنه لم يأخذ بها في التقسيم العام للكتاب ، بل كان يذكر في بداية كلامه عن كل كورة مكانها من الاجزاء الستة التي قسم قسطنطين الاندلس اليها . وتجدر الاشارة أيضا الى أن تقسيم الاندلس الى « أدنى » و « أقصى » - كما هو وارد في بداية النص - لا يخلو من التداخل ، وبالرجوع الى النص القيم الذي أورده البكري عن قسمة قسطنطين ندرك على الفور أن هناك اضطرابا ونقصا في نص العذري[٣٢] .

٥ ـ وبجانب التقسيم العام للاندلس الى شرقي وغربي ، نجد أن العذري قد قسم كل قسم منها الى مجموعة من الكور ، تشتمل كل كورة منها على مجموعة من الأقاليم والأجزاء ، ومفهوم « الاقليم » هنا يختلف عن مفاهيمه المعروفة عند المشارقة ، اذ إن المقصود به هو نطاق المدينة الاداري ، وهو يقابل مصطلح « الرستاق » عند المشارقة[٣٣] . اما « الجزء » فهو منطقة أحراش

وغابات ومراع مشاع لأهل الاقليم المحيط بها(٣٤)

وعند كلامه عن كل كورة يهتم بذكر « قاعدتها » أي عاصمتها وهي « قرار العمال والقواد » فكورة تدمير قاعدتها مدينة لورقة ، ومدينة بلنسية قاعدة كورة بلنسية . ثم يذكر مكان الكورة من قسمة قسطنطين ، فمدينة بلنسية في الجزء الرابع ، ولبلة في الجزء السادس ، وهكذا .

ويهتم ايضا بتعليل أسماء المدن وتفسيرها ، وبخاصة أن معظم أسماء مدن الاندلس لاتينية . ولم يكن العذري أول من اهتم بذلك ، بل نجد نفس الاهتمام عند الرازي قبله ، وكذلك عند معاصره البكري . والجدير بالذكر ان دراسة الاسماء الجغرافية وتعليلها من المواضيع التي تهتم بها الجغرافية اليوم .

ومن أمثلة تعليلاته :

أشبيلية : أي المدينة المنبسطة .

أوريولة : الذهبية .

لورقة : أي الدرع الحصين .

ويشير بعد ذلك الى تاريخ انشاء المدينة وأول من بناها ومن نزلها من جند العرب . وسنعرض هنا لاهتماماته الاخرى ، متخذين من كورة اشبيلية مثالا(٣٥) :

الموقع : تقع في الجزء السادس من قسمة قسطنطين للاندلس ، ومدينة أشبيلية هي قاعدتها أو عاصمتها ، وتقع غربي قرطبة على النهر الاعظم نهر قرطبة (الوادي الكبير) .

وتنقسم هذه الكورة الى اثنى عشر اقليما هي اقليم المدينة ، ألْيَه ، السهل ، لليو ، البصل ، طالقة ، الشرف ، الوادي ، طشانة ، الفحص ، قطشانة ، المنستير .

الحدود الادارية : تمتد احواز اشبيلية (ما تحوزه من أرضين) غربا لمسافة ثلاثين ميلا مختلطة بأحواز كورة لبلة . وتأخذ في الجوف (الجنوب) مع اقليم قطر شانة خمسين ميلا . وتأخذ قبلة مع اقليم الفحص وبعض الانحراف نحو الشرق خمسة وعشرين ميلا . وتختلط أحوازها بأحواز كورة شذونة . وتأخذ في الشـرق أربعين ميلا ، وتختلط أحوازها بأحواز قرطبة

الزراعة والرعي : يزرع في جبل الشرف الـزيتون الجيـد ، وقد أخـذ في الأرض طولا وعرضا فراسخ في فراسخ ، نظرا لطيب التربـة واعتدال المنـاخ . ويبقى زيته برقته وعذوبته اعوامـا لا يتغير طعمـه ولا يؤثر فيـه مكث ، فاضـلا بخاصته هذه البقعة على غيرها من الزيت . ويصدر عن طريق البحـر الى بلاد المشرق . ولاعتدال المناخ ايضا يبقى عسلها حينا لا يتغيـر ، وكذلك اليابس من تينها يبقى دهرا .

ومن فضائل تربة اشبيلية أيضا ، التي انفردت بها نمو القطن الجيـد الذي يصدر الى معظم بلاد الاندلس ، كما يتجهز به التجار الى افريقية . وكذلك نبات العصفر وقصب السكر ، والاخير يجود على السواحل .

أما الرعي فذكر أن بها مواضع ندية لا تتهشم مروجها صيفا ، وتتمـادى غضارتها ، وبذلك يصلح نتاج رمكها ، وتدر الالبان على طيب مسارحها . ولو اقتصرت مسارح الاندلس عليها لوسعتها .

الطرق : ذكر العذري طريقين من اشبيلية الى قرطبة ، اشار الى احدهما باسم « طريق الرفاق » يمر بقرمونة على الوادي الكبير . قال ومسافة ما بين اشبيلية وقرطبة تسعون ميلا .

وذكر في آخر كلامه عن اشبيلية أن جبايتها في أيام الأمير الحكم كانت خمسة وثلاثين ألفا وتسعمئة وتسعين دينارا وخمسة دراهم .

ومن هذا المثال يمكن أن نتصور مقدار اضافته العلمية في مجال الجغرافية التاريخية للاندلس في القرن الخامس الهجري ، وللاسف احتوت النصوص التي وصلتنا عن الاندلس من كتابه على ثغرات كثيرة ، ولولا ذلك لكانت الفائدة أعم وأوفى .

الخلاصة :

١ ــ يذكرنا كتاب « ترصيع الاخبار » أو « المسالك والممالك » للعذري بتلك الموسوعات الجغرافية التي سادت المشرق في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وتتمثل في كتابات ابن خرداذبة واليعقوبي وابن الفقيه والجيهاني وغيرهم . وقد عرفنا من النصوص التي وصلتنا عن تلك الكتب أن الجغرافيا فيها كانت مختلطة بالاخبار والتواريخ .وتأثر جغرافيي الاندلس بهذا الاتجاه يؤكد الاتصال الثقافي الوثيق بين شطري العالم الاسلامي وقتذاك .

٢ ــ ان النصوص المتعلقة بالعجائب سواء عند العذري أو عند غيره من الجغرافيين العرب كثيرا ما يكون لها دلالتها العلمية ، فالعجب ـ كما ذكر القزويني ـ « حيرة تعرض للانسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه ، مثله أن الانسان اذا رأى خلية النحل ولم يكن قد شاهد النحل من قبل تحير لعدم معرفته فاعلها ، فلو علم أنها من عمل النحل ولم يكن شاهد النحل من قبل لتحير ايضا من حيث ان ذلك الحيوان الضعيف كيف أحدث هذه المثلثات المتساوية الاضلاع التي عجز عن مثلها المهندس الحاذق مع الفرجار والمسطرة »(٣٦) .

وقد أشرنا الى احدى الغرائب التي ذكرها العذري في كتابه وهي العين الواقعة

غربي حصن بلس وأن من قصدها وبه ريح أو وجع واغتسل منها شفى ، وحقيقة تلك العين أنه يتوفر بعض الكبريتات في مائها ، مثلها في ذلك مثل العيون الكبريتية المعروفة في بعض مناطق العالم اليوم . .

ومن الممكن تفسير الكثير من العجائب والغرائب الواردة في تراثنا العربي وردها الى حقيقتها العلمية وقد درس حسين فوزي هذه الناحية دراسة جيدة في كتابه « السندباد القديم » وبخاصة تلك الغرائب المتعلقة بالقصص البحرية الواردة في كتّاب الف ليلة وليلة وكذلك ما أورده القزويني والدميري وابن الوردي وغيرهم من كتاب العجائب ، وخلص الى نتيجة مهمة هي أن كتب العجائب في أحسن أنواعها لا تعدو أن تكون كتبا وصفية للبلدان وأهلها ومسالكها وحيوانها ونباتها وتربتها ، وأننا عندما نخلص الاسطورة أو القصة العجيبة من ترهات العامة ورواة القصص فسوف نجد امامنا احدى حقائق الجغرافية الطبيعية أو التاريخ الطبيعي .[٣٧]

٣ ــ اعتمد العذري كثيرا على مسألة الناس عن بلادهم وكذلك مخالطة التجار وأصحاب الحرف المختلفة ومعرفة ما يحملونه من سلع إلى البلاد المختلفة ، وفي أحد نصوص البكري يقول « اخبرني العذري قال : ذكر لي رجل من أهل الحذق والمعرفة بالهندسة ، قال : دخلت بلاد غيارو من وراء بلاد غانة . . الخ » .كما ان رحلة العذري الى مكة ومكثه هنالك ما يقرب من تسعة أعوام زودته بمعلومات كثيرة عن بلاد الإسلام ، وقد روى البكري عجيبة أخبره بها رجل من قريش عن طير على حفة البحر المحيط ، بحر المغرب ، وقع على أحد البيوت فهدمها[٣٨] .

كما أورد العذري في كتابه بعض المعلومات عن بلاد الاندلس أخبره بها

بعض ابناء تلك البلاد (انظر على سبيل المثال ص ٦ ، ٨ ، ٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ، من كتاب العذري) .

ولا يخفى على أي باحث أهمية المصادر الشفوية التي تزود المؤلف بمعلومات معاصرة تتفق وطبيعة علم الجغرافيا المتغير ، أما الاعتماد على المصادر المكتوبة فكثيرا ما ينقل المؤلف الى مجال الجغرافية التاريخية .

٤ ــ ان المعلومات الجغرافية التي أوردها العذري في كتابه ذات قيمة كبيرة في معرفة الجغرافية التاريخية للاندلس وبلاد غرب أوروبا وجزر البحر المتوسط في القرن الخامس الهجري .

ومن المؤسف أن ما وصلنا من كتاب العذري لم يكن الا جزءا يسيرا من الاصل ، سواء تلك القطعة التي نشرها الاهواني ، أو تلك النقول التي أوردها القزويني والزهري وغيرهما ، وكان على الاهواني ان يقوم بجمع تلك النقول واثباتها في ملحق للكتاب ، وبخاصة أن نقول القزويني الكثيرة عن العذري والمتعلقة بما خصت به بلاد الاندلس من المعادن والاشجار لا توجد في النص المنشور من الكتاب .

ان من الواجب تجميع نصوص العذري المتفرقة في المصادر المختلفة من أجل معرفة حدود معرفته الجغرافية ، وبيان اضافاته لهذا العلم ، وحتى يمكن وضعه في المكان الصحيح بين أقطاب المدرسة الجغرافية في الأندلس .

المراجع والحواشي :

(١) ابن حوقل ، ابو القاسم بن حوقل النصيبي ، صورة الارض ، ص ٢٨٤ دار مكتبة الحياة ، بيروت (ب.ت) .

(٢) المراكشي ، عبد الواحد : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ص ٤٣١ ، القاهرة ١٩٦٣ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، تحقيق وستنفلد (٥٨٢/٢) ، ليبزج ١٨٦٦ .

(٤) عن هؤلاء العلماء يراجع :

ــ ابن بشكوال ، خلف بن عبد الملك : كتاب الصلة ، القاهرة ١٩٦٦ .

ــ ابن الابار ، محمد بن عبد الله : تكملة الصلة ، تحقيق عزت العطار ، القاهرة .

ــ ابن الابار ، محمد بن عبد الله : الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ .

ــ الضبي ، أحمد بن يحيى : بغية الملتمس في تاريخ رجال الاندلس ، مدريد ١٨٨٤ وهي من أهم الكتب التي تكلمت عن علماء الاندلس .

(٥) نشر كتاب ابن حزم في القاهرة ١٩ بتحقيق عبد السلام هارون اما كتاب ابن عبد البر فقد طبع في النجف ١٩٦٦ هـ .

(٦) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ص ٥٦ ، مدريد ١٩٦٧ .

(٧) الحميدي ، محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، تحقيق الدكتور احسان عباس ، ص ٢ ، بيروت ١٩٧٤ .

ونجد مثل هذا عند ابن حوقل ، فهو يستغفر الله من حمل كتابي ابن خرداذبة والجيهاني معه في رحلته ، والاشتغال بهما عما يلزمه من توخي العلوم النافعة والسنن الواجبة (صورة الارض ، ص ٢٨٤) .

(٨) البكري ، ابو عبيد : معجم ما استعجم من أسماء الامكنة والبقاع تحقيق مصطفى السقا ، (٤/١) القاهرة ١٩٤٥ .

(٩) ابن خير ، ابو بكر محمد : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، ص ٤٣٠ ، ٢٢٢ ، بغداد ١٩٦٣ .

(١٠) انظر على التوالي :

ــ ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٥٨٢/٢) .

ــ ابن الاثير ، ضياء الدين : تحفة العجائب وطرفة الغرائب ، مخطوط بمكتبة المتحف البريطاني رقم ADD 233384 ، الورقة الثانية .

ــ القزويني ، زكريا بن محمد : آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٤٩٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ . بيروت ١٩٦٩ .

(١١) البكري ، أبو عبيد : كتاب الممالك والمسالك مخطوط بالمكتبة العامة بالرباط تحت رقم ٤٨٨ • ورقة رقم ١١ وما بعدها ، وتشتمل على النصين السابقين ويبدو أن الاثنين قد أخذا هذه المادة عن الكندي ، عمر بن محمد في كتابه « فضائل مصر » ، ص ص ٥٨ ـ ٦٢ ، القاهرة ١٩٧١ .

(١٢) انظر في تحقيق اسماء الكور المذكورة ومواقعها :

البكري : جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك ، تحقيق عبد الله الغنيم ص ص ٥٩ ـ ٦٨ . الكويت ١٩٨٠ . وقد تركت الاسماء مصحفة كما هي ليعرف مقدار التشابه بين نص البكري ونص العذري .

(١٣) الصرود هي المناطق الباردة ، والجروم المناطق الحارة .

(١٤) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٢٧١ .

(١٥) لسترنج ، كي : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، ص ٣٥٢ ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٥٤ .

(١٦) الازدي ، محمد بن عبد الله : تاريخ فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ص ١٤٣ ـ ١٤٦ ، القاهرة ١٩٧٠ .

(١٧) البكري : الممالك والمسالك ، ورقة رقم ٥ مخطوطة مكتبة الاكاديمية الملكية التاريخية بمدريد رقم ١٣ (مجموعة جاينجوس) ايضا مخطوطة مكتبة كلية القرويين بفاس رقم (ل ٨٠ / ٣٩٠) من ورقة ١١١ الى ورقة ١١٦ .

(١٨) الزهري ، محمد بن ابي بكر : كتاب الجغرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، ص ٧ ، ١٢ ، ٧٤ ، بيروت ١٩٦٥ .

(١٩) ابن شجاع ، ابراهيم بن شجاع : منازل الحجاز ، وهي المنازل التي تلقى الحاج الذي يقصد الحجاز ، ص ١٣ ، مخطوط بمكتبة لاله لي باسطنبول رقم ٢/٣٤٨١ .

(٢٠) عبد الله الغنيم : مصادر البكري ومنهجه الجغرافي ، ص ١٥٤ وما بعدها ، ط ٢ الكويت ١٩٧٩ .

(٢١) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ، ص ٩٧ .

(٢٢) عبد الله الغنيم : « من وحي ندوة ابن حيان » ، ص ٦٥٣ ، مجلة العرب السنة ١٦ ، الرياض ١٩٨٢ .

(٢٣) العذري : ترصيع الاخبار ، ص ٧ ، وحصن ميربيط قريب من مدينة لورقة . وقد ذكرها القزويني في آثار البلاد (ص ٥٤٧) واشار الى اختلاف الآراء حول موقعها ، فمنهم من قال انها بغرناطة ومنهم من ذكر أنها بسقورة ، ثم أورد قول العذري .

(٢٤) القزويني : آثار البلاد ، ص ٢١٦ .

(٢٥) العذري : ترصيع الاخبار ، ص٩ .

(٢٦) القزويني : آثار البلاد ، ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

(٢٧) العذري ترصيع الاخبار : ص ١٩ .

(٢٨) المصدر السابق : ص ٢٤ .

(٢٩) القزويني : آثار البلاد ، ص ٥٠٥ .

(٣٠) العذري : ترصيع الاخبار ، ص ٢٠ .

(٣١) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(٣٢) عبد الرحمن الحجي : جغرافية الاندلس واوربا من كتاب المسالك والممالك للبكري ص ٥٩ وما بعدها ، بيروت ١٩٦٨ . ويحسن الرجوع في هذا الموضوع الى الدراسة المستفيضة للاستاذ الدكتور حسين مؤنس في كتابه فجر الاندلس ، ص ٥٣٩ وما بعدها ، القاهرة ١٩٥٩ . وعالج نفس الموضوع أيضا في كتابه تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ص ص ٨٤ - ٩٣ .

(٣٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، (٤١/١) .

(٣٤) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية ص ٥٦٥ .

(٣٥) العذري : ترصيع الاخبار ، ص ٩٥ وما بعدها .

(٣٦) القزويني : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، تحقيق فاروق سعد ، ص ٣١ ، بيروت ١٩٧٣ .

(٣٧) حسين فوزي : حديث السندباد القديم ، ص ٣٤ ، القاهرة ١٩٤٣ .

(٣٨) البكري : الممالك والمسالك ، ورقة ٣١ ، مخطوط بمكتبة لاله لي باسطنبول ، رقم ٢١٤٤ .

سلسلة أعـداد النشرة لعامي ١٩٨٨ - ١٩٨٩

سلسلة اصدارات وحدة البحث والترجمة

١ـ تقلبات المناخ العالمي — عرض وتعليق: أ.د. محمد صفي الدين أبو العز
٢ـ محافظة الجهراء — أ.د. زين الدين غنيمي
٣ـ تعدادات السكان في الكويت — أ.د. أمل العذبي الصباح
٤ـ أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة — أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٥ـ أشكال سطح الأرض المتأثرة بالرياح في شبه الجزيرة العربية — أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٦ـ حول تجربة العمل الميداني لطلاب الجغرافيا بجامعة الكويت — أ.د. صلاح الدين بحيري
٧ـ الاستشعار من بعد وتطبيقاته الجغرافية في مجال الاستخدام الأرضي — أ.د. علي البنا
٨ـ البدو والثروة والتغير: دراسة في التنمية الريفية للامارات العربية المتحدة وسلطنة عمان — ترجمة: د. عبدالاله أبو عياش
٩ـ الدليل البحري عند العرب — حسن صالح شهاب
١٠ـ بعض مظاهر الجغرافيا التعليمية لمقاطعة مكة المكرمة — د. ناصر عبدالله الصالح
١١ـ طرق الملاحة التقليدية في الخليج العربي — حسن صالح شهاب
١٢ـ نباك الساحل الشمالي في دولة الكويت دراسة جيومورفولوجية — د. عبدالحميد كليو، د. محمد اسماعيل الشيخ
١٣ـ جغرافية العمران عند ابن خلدون — د. عبدالعال الشامي
١٤ـ جزر فرسان دراسة جيومورفولوجية — أ.د. محمد سعيد البارودي
١٥ـ السمات العامة لمراكز الاستيطان الريفية في منطقة الباحة «المملكة العربية السعودية» — د. محمد محمود السرياني

سلسلة منشورات وحدة البحث والترجمة

١- بيئة الصحاري الدافئة	ترجمة: أ.د. علي البنا
٢- الجغرافيا العربية	تعريب: أ.د. عبدالله يوسف الغنيم، د. طه محمد جاد
٣- مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي	د. عبدالعال الشامي
٤- العالم الثالث: مشكلات وقضايا	ترجمة: أ.د. حسن طه نجم
٥- التنمية الزراعية في الكويت	أ.د. محمد رشيد الفيل
٦- القات في اليمن: دراسة جغرافية	د. عباس فاضل السعدي
٧- هيدرولوجية الأقاليم الجافة وشبه الجافة	تعريب د. سعيد أبو سعدة
٨- منتخبات من المصطلحات العربية لأشكال سطح الأرض	أ.د. عبدالله يوسف الغنيم
٩- البلدان اليمانية عند ياقوت الحموي	تحقيق القاضي اسماعيل بن علي الأكوع
١٠- المدن الجديدة بين النظرية والتطبيق	د. أحمد حسن ابراهيم
١١- الأبعاد الصحية للتحضر	ترجمة: أ.د. محمد عبدالرحمن الشرنوبي
١٢- التطبيقات الجغرافية للاستشعار من بعد: دليل مراجع	د. صبحي المطوع
١٣- قواعد علم البحر	حسن صالح شهاب
١٤- الانسياق الرملي وخصائصه الحجمية بصحراء الدهناء على خط الرياض - الدمام	مشاعل بنت محمد بن سعود آل سعود
١٥- التخطيط الحضري لمدينة الأحمدي وإقليمها الصناعي	د. وليد المنيس د. عبدالله الكندري
١٦- كيف ننقذ العالم	ترجمة: أ.د. علي علي البنا، أ.د. زين الدين عبدالمقصود
١٧- أودية حافة جال الزور بالكويت تحليل جيومورفولوجي	د. عبدالحميد كليو
١٨- الألواح الجيولوجية ونظمها التكتونية	ترجمة: أ.د. حسن أبو العينين
١٩- جيومورفولوجية منطقة الخيران جنوب الكويت	د. السيد السيد الحسيني
٢٠- الشوائب في تحقيق كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد	تأليف: شهاب الدين أحمد بن ماجد
٢١- التحضر في دول الخليج العربية	د. خالد محمد النعقري
٢٢- جغرافية العالم الثالث	تعريب: د. حسن طه نجم د. مكي محمد عزيز
٢٣- الصور الجوية - دراسة تطبيقية	د. خالد العنقري